جمالية السخرية في شعر أحمد مطر
دراسة أسلوبية

د. بشرى عبد المجيد تاكفراست
كلية اللغة العربية /مراكش

الملخص

للشاعر أحمد مطر تيمة أسلوبية متميزة في اختيار الألفاظ وتوزيعها وترتيب أجزاء الجملة لغايات فنية جمالية، تهز القارئ بانحرافاتها وتنافر حمولاتها وتشظي قراءتها وكثافة دلالتها، تستدعي قارئا متقنا للعبة الألغاز اللغوية بحمولة ثقافية عالية حتى لا ينزلق في متاهات الدلالات... فلغته خاصة ضمن اللغة العامة، وخطابه غير عاد ضمن الخطابات التواصلية العادية . يؤسس ذاته وجماليته في تمرده عن التأثير القواعدي /النحوي، وعن السنن اللغوية الشائعة.

وتبغي هذه المداخلة التي تحمل عنوان: " **جمالية السخرية في شعر أحمد مطر، دراسة أسلوبية** " الكشف عن مظاهر شعرية وتجليات جمالية في شعر أحمد مطر الساخر، وذلك للوقوف على الإيماضة الفنية، وجمالية الانصهار الحاصل بين اللفظ والتركيب، والوقوف كذلك على الجماليات المنفلتة التي يتميز بها هذا الشعر بناء وتحليلا ونظما وتعبيرا...

Abstract

Poet Ahmed Mattar Tayma has a very distinctive style in choosing words and arranging parts of verse for aesthetic objectives. So his works motivate the reader in question as a result of their deviations, repulsion of their style, fragmentations of their readings and the intensity of their meaning therefore, his works require a well-versed reader in the field of linguistic riddles and good cultural background so as not be lost in the meanings of his verses. Moreover, his language is special in the general language. Besides, his statement is not ordinary among normal communicative ones. It builds itself

and its beauty by the deviation from the grammatical impact and common linguistic rules.

Furthermore, the intervention which is titled "The beauty of irony of Ahmed Mattar poetry: stylistic study" requires discovering poetic phenomena and aesthetic manifestation of Ahmed Mattar ironic poetry to highlight the artistic glitter, the beauty of infusion between words and structure and shed lights on derailed beauties which make this poetry distinguished one on the structural, analytic, systematic and expressive levels.

توطئة:

من المناهج المعاصرة الأكثر قدرة على تحليل الخطاب الأدبي، وإظهار مكامن الجمال والقبح فيه "المنهج الأسلوبي" ... وقد بدأ الاهتمام به بتزايد عدد الدارسين الذين اعتبروا أن الأسلوبية الوارث الشرعي للبلاغة ،أو هي امتداد لدرس البلاغة الذي سبب اندثاره في انتشار الأسلوبية ... حتى حق القول إن البلاغة أسلوبية القدماء، والأسلوبية وجه بلاغي عصري يدرس الأسلوب عبر طريقة التذوق الفني ....تنطلق من أن الأثر الأدبي بنية ألسنية تتحاور مع السياق المضموني تحاورا خاصا عبر اتجاهاتها المتعددة (أسلوبية التعبير، أسلوبية الانزياح، الأسلوبية الفردية، الأسلوبية البنيوية، الأسلوبية الإحصائية، الأسلوبية الأدبية، الأسلوبية التأثرية، الأسلوبية الصوتية) .

لم تقف الأسلوبية عند الألفاظ وعلاقتها بالجمل والتراكيب النحوية بل شملت الأصوات والصيغ، والكلمات والتراتيب فتداخلت مع علم الأصوات وعلم الصرف وعلم الدلالة، وتوسعت أكثر حين تداخلت مع علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وعلوم أخرى ....

بهذه القناعات التي جمعتها وأنا أجوب أركان هذا العلم، ارتأيت دراسة شعر الشاعر الإعلامي أحمد مطر[1] والوقوف على مكامن الجمال الفني في سخريته من خلال مجموعة من أشعاره، هذه السخرية التي اتخذها كأداة دقيقة وسلاح خطير في وجه السياسات الظالمة المستبدة المتحكمة بمصائر الشعوب، وضد العادات والتقاليد التي تخلف الأمراض في المجتمعات...

للشاعر أحمد مطر تيمة أسلوبية متميزة في اختيار الألفاظ وتوزيعها وترتيب أجزاء الجملة لغايات فنية جمالية، تهز القارئ بانحرافاتها وتنافر حمولاتها وتشظي قراءتها وكثافة دلالتها، تستدعي قارئا متقنا للعبة الألغاز اللغوية بحمولة ثقافية عالية حتى لا ينزلق في متاهات الدلالات... فلغته خاصة ضمن اللغة العامة، وخطابه غير عاد ضمن الخطابات التواصلية العادية . يؤسس ذاته وجماليته في تمرده عن التأثير القواعدي /النحوي، وعن السنن اللغوية الشائعة.

وتبغي هذه المداخلة التي تحمل عنوان: " **جمالية السخرية في شعر أحمد مطر، دراسة أسلوبية** " الكشف عن مظاهر شعرية وتجليات جمالية في شعر أحمد مطر الساخر، وذلك للوقوف على الإيماضة الفنية، وجمالية الانصهار الحاصل بين اللفظ والتركيب، والوقوف كذلك على الجماليات المنفلتة التي يتميز بها هذا الشعر بناء وتحليلا ونظما وتعبيرا...

دراسة:

لم يتعامل الشاعر المعاصر مع اللغة على أنها أداة لتوصيل رسالة إبلاغية فقط ،بل تعامل معها بوصفها هدفا لتحقيق الغاية الجمالية، وما الشاعر احمد مطر بمعزل عن هذه القاعدة، فشعره يعج بمواقف ساخرة من الواقع السياسي العربي ومن القيم الإنسانية التي انحطت، بلغة مميزة في جماليتها

...فهو الشاعر الرافض الذي ينفر من إرادة الآخر وتسلطه وعنفوانه متخذا من الاستهزاء بالواقع العربي المتخلف شعارا... وتبعا لذلك يعتمد شعره على فكرة المباغتة التي تفجر الدوال الكامنة في النص وفق نسق من العلاقات تمرر الممنوع بأسلوب السخرية تحزن من شدة الفرح وتؤلم من شدة الهزل ... الأمر الذي سنفصح عنه من خلال قراءتنا لبعض النماذج الشعرية من شعره.

فقصيدة "تصدير واستيراد "[٢] مثلا، عبارة عن شذرة شعرية كثيفة المبنى تتخذ من السخرية سبيلا للتعبير، إذ يلاحظ القارئ كيف نزل المالك لدرجة المملوك المستعبد، لينقله إلى واقع صادم غريب دون افتعال ولا اصطناع، واقع الأمة العربية التي آلت إلى الاستعباد والتبعية بأسلوب ساخر ساذج، إنه الضحك القاتل أو ما يطلق عليه ضحك الفكرة الملغمة، ضحك مر النكهة قاسي الدلالة...يؤدي إلى تبئير المعنى وتكثيف دراميته وتصعيد مأساويته، لأنه إضحاك ناتج عن شدة التوتر وذروة التشظي والتمزق والتمرد...

تعتبر قصيدة الومضة[٣] باعتبارها آخر مستجدات الساحة الشعرية المعاصرة في أواخر القرن العشرين، مجال إبداع الشاعر أحمد مطر، وذلك لقصر قامتها اللغوية وامتلائها الترميزي وكثافتها الدلالية ... وأنت تتصفح الأعمال الكاملة لهذا الشاعر الساخر، أول ما يسترعي انتباهك العناوين التي اختار لقصائده لأنها المفتاح الذي يساعد الدارس للولوج إلى أغوار النصوص استنطاقا وتأويلا وتفكيكا وإعادة تركيب . فهي عناوين مركبة مطبوعة بتبعثر لفظي دلالي، وهندسة لغوية مشكلة التركيب، تثير انفعال القارئ وفضوله بانزياحها الأسلوبي، وخروجها عن النمط التعبيري المتعارف عليه، مما يضعف دور الوظيفة المرجعية ويعطي للغموض والتشويش مكانا ... وكأن أحمد مطر يصر على قطع جسور التواصل بين نصوصه الشعرية وقارئه، فتأمل معي العناوين التالية : " لن أنافق، المنبه، اللغز، أنا إرهابي، زمن الحواسم، عائدون من المنتجع، تصدير واستيراد، المنشق ..." كلها أدوات استفتاح تشعرك بالإقبال على أمر معين عميق الدلالة ممتلئ الترميز، فهذه العناوين تعطي انطباعا بأن القصيدة فكرة مكتملة يعبر عنها الشاعر بطريقة لا تخلو من التخييل والانزياح الأسلوبي.

وعليه ،نعتبر عنوان قصيدة أحمد مطر ظاهرة جمالية مشحونة ومثقلة بكثافة دلالية، تتسم بالقصدية التواصلية، تحمل المتلقي على توظيف ثقافته وفكره وذكائه لفك شفرات العنوان وإنتاج دلالته المحملة بانحرافات أسلوبية لا محدودة ... ولا يمكن له ذلك إلا بالرجوع إلى القصيدة، مما يؤكد قوة ارتباط العنوان بالقصيدة كعلامة دالة على تلاحم النص، فعنوان قصيدته تصدير لها وتعريف بها وتأطير لكيانها اللغوي والدلالي...

لكن الأمر يختلف إذا وقفت على عنوان قصيدة " خطاب تاريخي" [٤] فهي تعكس تناقضا ومفارقة

كبيرة بين حجم القصيدة وعنوانها، فالعنوان يوحي بنص طويل لكن القارئ يعيش أمام قصر قامة القصيدة اللغوي نوعا من الاندهاش والنقلة الفجائية...

الملاحظ على قصائد أحمد مطر أن كلماتها تتوزع فيما بينها داخل الجملة، والجمل فيما بينها داخل المقاطع، ويكون لذلك تأثير كبير على مستوى الدلالة والتركيب، فالشاعر أحمد مطر يتصرف في أدائه الفني الأسلوبي دون أن يعبأ بنظام ترتيب الكلمات وتوزيعها على الشكل المألوف من ذلك استعماله لظاهرة التقديم والتأخير، فنلاحظ أن الشاعر يتعمدها ليحقق الانزياح في العديد من قصائده ومن أمثلة ذلك قول الشاعر في قصيدة "المنشق":

أكثر الأشياء في بلدتنا
الأحزاب
والفقر
وحالات الطلاق
عندنا عشرة أحزاب

ففي مستهل القصيدة يبدأ بالخبر "أكثر الأشياء" ثم يأتي بالمبتدأ " الأحزاب، والفقر، وحالات الطلاق" لإغناء المعنى وإبرازه... ونفس الشيء نصادفه في قصيدة "أنا إرهابي ":

الغربُ يبكي خيفــةً
إذا صَنعتُ لُعبــةً
مِــن عُلبــةِ النُقابِ
والغربُ يرتــاعُ إذا
عَبــدتُ ربّــاً واحِــداً
في هــدأةِ المِحــرابِ.(٥)

في هذين التركيبين قدم المسند إليه على المسند لغرض معنوي، فتزايدت شاعرية كل تركيب على حدة، فقد جاءت كلمة "الغرب" (الفاعل) متقدمة استغفار وتحقيرا على الفعل (يبكي) شماتة وسخرية، وهذا التصرف في البناء النحوي للجملة: تقديم الفاعل على الفعل يشعرك أن أحمد مطر يريد أن يؤكد على أن الغرب الذي تحسبونه قويا وتقدسونه ،هو صغير وجبان وخائف ...

ويلاحظ أن عبارة "يبكي خيفة " و"يرتاع" في ارتباطهما بما بعدهما أسهمتا في توتر اطمئنان القارئ الذي فوجئ بهذا التنامي اللامنتظر للفعل الشعري، الذي ساهم جماليا في تعميق الإحساس لدى المتلقي بالاستغراب والدهشة والتعجب، فأسلوب الشرط في المقطعين عمق دلالة السخرية والتهكم ...

وفصل كذلك في قصيدة "المنشق"بين المسند والمسند إليه بشبه جملة "في بلدتنا"، وقدم الظرف "عندنا" على "عشرة" لتوكيد التعبيرعن المأزق الذي يعيش فيه في عبارة "عندنا عشرة أحزاب، ثم قدم التوكيد بكلمة"كل" على المؤكد في قوله:

كلها ينشق في الساعة شقين
وينشق على الشقين شقان
من أجل تحقيق الوفاق

فالشاعر يستعمل اختيارات نحوية تعزز ثقته بجمال الأسلوب، وقد تكرر هذا الاختيار في العديد من نصوصه الشعرية مما أضافها شحنة تعبيرية تشد المتلقي.

ولم يخرج الشاعر أحمد مطر عن ما اعتاده الشعراء العرب من زيادة ونقصان لتخطي المعنى الوظيفي للجملة إلى وظائف أسلوبية جمالية لا تتحقق إلا باستحضار العناصر الزائدة ومن ذلك قوله:

وَهْــوَ الذي يعجِــنُ لي
مِــنْ شَعَــراتِ ذيلِــهِ
ومِــنْ تُرابِ نَعلِــهِ
ألفــاً مِــنَ الأربابِ
ينصُبُهــمْ فــوقَ ذُرا
مَزابِــلِ الألقاب(٦)

لجأ أحمد مطر إلى زيادة الاسم الموصول " الذي" وكان بإمكانه أن يقول:"وهو يعجن لي" وذلك لتأكيد المعنى وتقويته .

ثم لجأ إلى تكرار حرف الميم، وكان بإمكانه أن يقول " وهو يعجن لي من شعرات ذيله وتراب نعله آلاف الأرباب "، وما ذلك إلا لتحقيق جمالية شعرية تحمل رنة ونغمة موسيقية تسهم في ثراء الأسلوب بالجمال والإشراق...

واستعمل الشاعر أحمد مطر تقنيات الحذف ومن ذلك حذف المسند إليه وهو يحتل رتبة المبتدأ نحويا والمشبه بلاغيا في قوله:

جمرات تتهاوى شررا
والبرد باق
ثم لا يبقى إلا رماد
الاحتراق(٧)

إذ التقدير هو: "هي جمرات تتهاوى شررا"، وقد تلاعب بعلاقة الإسناد فأسند تهاوى للشرر، وهذا الترتيب لعناصر العبارة قوة مضافة للمعنى، وتوظيف جمالي للعلائق بين الألفاظ.

وفي قوله :

الغربُ يبكي خيفــةً
إذا صَنعتُ لُعبــةً
مِــن عُلبــةِ النُقابِ
والغَــربُ يرتاعُ إذا
أذعتُ،يومــاً،أنّــهُ
مَــزّقَ لي جلبابــي(٨).

نلاحظ أنه حذف الفاعل وجوبا في قوله : "إذا صنعت لعبة "، لأنه لا يمكن أن يحل محله اسما ظاهرا فناب عنه الضمير المستتر الذي تقديره " أنا"، وتقدير الكلام " إذا أنا صنعت لعبة " وما ذلك إلا لتخفيف النطق وتجنب الثقل على اللسان وإضفاء لمسة جمالية تتلذذ بحلاوتها الأذن...

ومن التقنيات الأسلوبية التي استعملها الشاعر أحمد مطر أدوات الربط، فهي ظاهرة بشكل جلي في شعره، وهو شيء مألوف في الجملة النثرية التواصلية ... أما على مستوى الشعر فيكتفي الشاعر بربط جزئيات السطر الشعري بتجاوز دواليه، مع احتمال حذف أداة العطف فيصبح المعنى أبلغ من ذكرها، ومن أمثلة ذلك قول أحمد مطر:

وَكَــيْ أؤدّي عِنــدَهُــمْ
شعائرَ الذبابِ !
وَهْــوَ .. وَهُــمْ
سيَضربونني إذا
أعلنتُ عن إضــرابي .
وإنْ ذَكَــرتُ عِنــدَهُــمْ
رائِحــةَ الأزهــارِ والأعشــابِ
سيصلبونني علــى
لائحــةِ الإرهــابِ !(٩)

فتكرار أحرف العطف يؤثر في المعنى (وكي/ وهو/ وهم/ وإن) ولا يبعث على الملل ،إذ يجمع بين الجمل ويفيد اشتراك معاني متعددة في حكم يريد الوصول إليه.

أما التقنية الثانية فهي خلو المقطع من أدوات الربط، والاستغناء عنها بتوالي أفعال الماضي أو المضارع أو الأمر، وهذا يؤكد اهتمامه بعنصر الحدث والزمن والحركة، فتوالي الأفعال يقوي التأثير ويستحضر الأشياء ويقنع المتلقي ... ونقف على ذلك في قول الشاعر أحمد مطر :

هــا أنَــذا أقولُهــا.
أكتُبُهــا .. أرسُمُهــا ..
أَطبعُهــا على جبينِ الغــرْبِ
بالقُبقــابِ :
نَعَــمْ .. أنا إرهابــي![١٠]

لاحظ قوله: " أقولها... أكتبها... أرسمها... أطبعها." كلها أفعال مضارعة استغنى بها أحمد مطر عن أحرف العطف رغبة في توسيع نطاق المعنى، ليظل محلقا مستقلا يتناثر إيحاءات ودلالة متعددة في غلو لإثبات انتماء الشاعر وهويته مع حالة من السخط والثورة ،فلم يقف عن الإعلان الشفهي " أقولها"، بل تعداه إلى الكتابة "أكتبها" والرسم "أرسمها" إلى فعل الطباعة "أطبعها" رغبة منه في البحث عن من يسايره في درب النضال والثورة...

يفيد التكرار في قصائد أحمد مطر تقرير خطاب سياسي مقنع مشحون بالتهكم والسخرية، ففي قصيدة "قواعد"[١١] تلاعب الشاعر بلفظة " قواعد"، فجعلها لازمة في قصيدته، وحملها كل مرة دلالة جديدة تختلف عن التي قبلها ... فهي مرة مرادفة للفظة "نظام/قانون"، وهي مرادفة ثانية للفظة "الجلوس/ القعود"، وهي ثالثة تفيد "بناء قاعدة عسكرية "، فلا رابط بين المعاني الثلاث لكلمة "قواعد"، وهذا يؤكد غناء التكرار وإثراءه للتنوع الدلالي في هذا النص الشعري في بعد عما قد يسببه (التكرار) من رتابة وملل... وفي قصيدة "أنا إرهابي" [١٢]، يكرر العبارة مرتين على طول القصيدة ليس بهدف توصيل المعلومة بل بهدف التعبير عن غضب عميق مصبوغ بصبغة تهكمية ساخرة ... مما يجعل نصوصه الشعرية مشحونة بالإيحاءات والرموز ،تنطوي على شحنات دلالية تشغل حيزا من خيال القارئ..

ومع قصيدة " مشاتمة "[١٣] نعيش نفسا آخر من التكرار بالرغم من كونها تمثل قمة الاقتصاد اللغوي ... فقد اعتمدت تكرار الألفاظ المحملة بدلالات نوعية بصياغات مبتذلة، فلم يزدها التكرار إلا رتابة وفقدانا للمستوى الفني الجيد والنكهة الشعرية المطلوبة.

النص الشعري المطري يستقي من القرآن الكريم ما يعمق به موقفه الساخر، فهو حريص على توظيف النصوص القرآنية المختزلة ذات المعاني والأفكار المتعددة، ولعل السبب في ذلك راجع إلى التوجه الإرادي والذاتي لدى الشاعر إلى القضية الإسلامية وإيمانه المطلق بأن الحل لمأساته ومأساة الشعوب العربية عامة تكمن في الرجوع لكتاب الله ... فاسمعه يقول :

زلزلـــةُ الأرضِ لهـــا أسبابُها
إنْ تُدركوهـــا تُدركـــوا أسبابي .
لـــنْ أحمِـــلَ الأقـــلامَ
بلْ مخالِبـــي !(١٤)

يشير هذا المقطع إلى الآيات الأولى من سورة الزلزلة " إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ".(١٥) التي جردت من دلالتها كرمز لمعاني الحساب والعقاب والجزاء لتدل عند أحمد مطر على معاني الثأر والثورة والتمرد ... أمام جور وطغيان الغرب.

وفي قصيدة "قلة أدب" يقول أحمد مطر:

قرأت في القرآن
"تبت يدا أبي لهب "
فأعلنت وسائل الإذعان
إن السكوت من ذهب
أحببت فقري ولم أزل أتلو:
"وتب"
"ما أغنى عنه ماله وما كسب"
فصودرت حنجرتي
بجرم قلة الأدب
وصودر القرآن
لأنه ... حرضني على الشغب !(١٦)

لهذا التضمين من النص القرآني دلالات متعددة وواضحة، فالكل يعرف أن «أبا لهب " طاغ مستبد نتيجته الهلاك. هذا مصير كل متجبر مستبد ... فالتناص هنا كان تناصا مع الآيتين الكريمتين :" تبت يدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. "(١٧)

وفي سخرية واضحة يصور الشاعر أحمد مطر جرم الحكام في توظيفه لقوله تعالى :" إذ أوى الفتية إلى الكهف."(١٨) وذلك حين قال في قصيدة "بلاد ما بين النحرين":

ولما أوى الفتية المؤمنون

إلى كهفهم

كان في الكهف من قبلهم مخبرون[١٩]

فأجرى فيها مقابلة رائعة بين أصحاب الكهف وما وجدوه من خلوتهم مع الله، وفي المقابل استعراض لحال السجون والمعتقلات لدى أنظمة الحكم في الوطن العربي...

وتكثر في قصائد أحمد مطر إحالات إلى الأقوال المأثورة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ذلك قصيدة "القضية" التي قال فيها:

زَعَموا أنّ لَنـــا

أَرضاً، وعِرْضاً، وَحَمِيّـــة

وسُيوفاً لا تُباريها المنيّـــة.

زَعَموا..

فالأرضُ زالتْ

ودماءُ العِرْضِ سالتْ

وَولاة الأمرِ لا أمرَ لَهُمْ

خارجَ نَصِّ المسرحيّـــة

كُلُّهمْ راعٍ ومسؤولٌ

عَنِ التفريطِ في حـــقّ الرعيّـــة!

وعَنِ الإرهابِ والكَبْتِ

وتقطيعِ أَيادي الناسِ

من أجلِ القضية![٢٠]

فقد وظف الشاعر في هذه الأبيات الحديث النبوي الشريف :" كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الأمير راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهلـــه وهـــو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، ألا فكلكم راع وكلكـــم مســـؤول."[٢١] للحديث عن المسؤولية التاريخية للحكام اتجاه رعاياهم، إذ فرطوا في حقوقهم ... فمع أن التناص واضح إلا أننا نسجل مفارقة في توظيف الحديث الشريف فقد جاء ليحذر وينبه قبل السقوط في حين أن أبيات أحمد مطر جاءت لتقرر تحصيل حاصل بعدما وقع التفريط ولم يعد ينفع معه التحذير....

ولا نبالغ إذا قلنا إن شاعرنا يعتبر قائدا للشعراء المعاصرين في توظيفه للثرات الديني في قصائده، إذ لا تخلو قصيدة عنده من التناص الديني، مما يضفي على نصوصه الشعرية ثراء وقدرة على التواصل، وقوة في تصوير الأفكار وتجلياتها جمالا ووزنا ونقاء وبهاء.

كما يستقي بأسلوب حواري من تاريخ الأمة العربية، فيستدعي شخصيات دينية تاريخية كرموز موحية في محاولة منه لإعادة كتابة التاريخ كشخصية "صلاح الدين الأيوبي"، وشخصية "عثمان بن عفان" ،في ديوان "العشاء الأخير لصاحب الجلالة إبليس الأول "... وتفعيلها مع الأحداث المعاصرة وكأنها من زمانه، فيقوم بتقديم النصيحة مرة، وبالتخفيف من وطأة الكرب مرة ثانية ،كما هو الحال في قصيدة "عوائق" [٢٢]، التي تجسد حوار الشاعر أحمد مطر مع الظواهر الطبيعية، فتصور قسوة المعاناة وشدة الصراع والتمزق لنفسية الشاعر في حوار مشحون بروح لامتناهية التصاعد، فهو يسأل ويجيب بعد الاستغراق في الوصف والتصوير... وهذا الأسلوب نقل أعماله الشعرية إلى مصاف الشعر المتميز الواسع الانتشار، والذي يحضى باهتمام شريحة واسعة من القراء والنقاد.

نفس النفس الحواري في قصيدة " المنبه "[٢٣] التي شكل فيها الحوار بنية تصاعدية غيرت مجرى الفهم في العبارة الأخيرة " حان وقت النوم"، مما يستلزم إعادة إنتاجه من قبل القارئ... فهذه براعة من أحمد مطر لتهيء السامع وتشويقه لاستحضار الأشياء .

يوظف أحمد مطر أسلوب الوعظ والإرشاد كثيرا ،نستدل عليه بقصيدة " لن أنافق"[٢٤] التي يدعو فيها الناس للنفاق حتى يضمنوا لأنفسهم العيش الهنيء والسعادة والرخاء ... في حين يبقى هو ثابتا في موقفه أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم لما حاوره عمه أبو طالب من أجل التخلي عن الدعوة الإسلامية خوفا عليه من قريش فقال :" والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته."[٢٥] ويبقى الشاعر أحمد مطر في تأثر كبير بالحديث الشريف، فهو لا يكتف بالإحالة إليه بل يستنزله في نصه الشعري ويستنسخ منه وجوها عديدة للدلالة والصورة والبيان.

استنتاجات:

من خلال هذه الرحلة القصيرة في شعر أحمد مطر نلاحظ أن أعماله الشعرية :

أولا: تتدرج ضمن آخر التقليعات الشعرية التي أثارت جدلا كبيرا بين النقاد وهي " قصيدة الومضة " والتي نعتت بأسماء متعددة فهي: القصيدة التوقيعية، قصيدة الخبر، القصيدة القصيرة، القصيدة المضغوطة، قصيدة الدفقة، قصيدة الفقرة، قصيدة اللمحة، قصيدة المفارقة، قصيدة القص الشعري، قصيدة الأسئلة ،القصيدة التأملية، القصيدة اللافتة، القصيدة اللاقطة، قصيدة الصورة، قصيدة الفكرة، قصيدة الخاطرة أو الخاطرة الشعرية، القصيدة العنقودية، القصيدة اليومية، الشذرة الشعرية، القصيدة الفلاشية والاشراقة الشعرية،القصيدة البرقية، النثيرة، القصيدة المضادة، القصيدة القصيرة جدا .[٢٦]

ونميل إلى تسميتها بقصيدة الومضة، لأن التسميات الأخرى ما هي إلا مواصفات لقصيدة الومضة بصيغ مختلفة ماعدا "الفكرة والصورة والمفارقة والأسئلة " فهي خصائص موجودة في كل الشعر العربي.

زد على ذلك أنها قصيدة تقوم على فكرة واحدة أو حالة معينة . تتكون من مفردات قليلة . تتسم بالاختزال والكثافة الدلالية والمفارقة والتلميح والتركيز، لها نهاية مدهشة مفتوحة...

ثانيا: تعكس عيوب ونقائص مجتمع يشعر بالحيف والظلم والاضطراب بعدما فقدت فيه العدالة الاجتماعية، فكان مصيره ضياع قيمه وانتشار الفساد الإداري والأخلاقي ... ومن أبرز القيم التي سخر منها " النفاق" الذي يهدم المجتمع ويدمره... صور بأسلوب ساخر حالة الفقر والجوع ومعاناة شعبه، وبموسيقى شعرية تتفق مع الحدث وتتناغم معه سيطر عليها بحر الرجز والكامل بهدوئهما وفنيتهما مما أضفى على قصائده لونا جديدا ونفسا متميزا.

ثالثا: يعتمد الشاعر أحمد مطر على الأسلوب القصصي كثيرا في كتاباته الساخرة ليلخص في مشهد قصصي مضغوط واقع الأمة العربية، مفخما من درامية الأحداث ومصعدا من مأساوية المشاهد داخل الخطاب الشعري، الذي تتوالى فيه الأحداث التي تجسدها الشخوص الرمزية في لوحة ساخرة بأسلوب تهكمي ساخر يخطف لب القارئ.

فالقصيدة الحكائية لدى الشاعر أحمد مطر تتبني على تواشج مجموعة من صيغ الأبنية المتباينة، في نسيج شعري يسعى إلى التخلص من إكراهات الدرس البلاغي القديم...وأغلبها على لسان الحيوان تستدعي قارئا فطنا يتذاكى قدر الإمكان لإجلاء حقيقة المجتمع العربي من ذلك قصيدة " عائد من المنتجع"[٢٧] التي صاغها على لسان حمار لتمثيل الوضع العربي الراهن بأسلوب تهكمي فاضح... فهذا الحمار كان حصانا قبل أن يحجزه السلطان يزهو بهزته وكبريائه ثائرا أبيا وأصبح حمارا رمز الذل والعبودية والانصياع ... لم يرد من ذلك الشاعر أحمد مطر إلا تبيان جور الحكام وقدرتهم عل إسكات صوت الأحرار والثوار.

ونفس الشيء نقف عليه في قصيدة " خطاب تاريخي "[٢٨] فأبطالها حيوانات (الجرذ والذباب) تحمل مغزى أخلاقيا متمثلا في التشجيع على النظافة، لكن سرعان ما يغير أحمد مطر أفق المتلقي ليجعله يصفق للطاقة الإبداعية المطوية المكتنزة بروح قائمة على التركيز والدقة والمفاجأة على النحو الذي تنجح به " قصيدة النكتة".

رابعا: يعتمد الشاعر أحمد مطر في شذراته أو قصائده على ألغاز تنتهي بحلول بسيطة وإن غلب عليها الغموض، من ذلك قصيدته " اللغز " [٢٩] التي تعتبر من أروع قصائد الشاعر، إنها قصيدة تبين حالة الدمار والانهيار والضياع التي صنعتهم التبعية للآخر، فأعطت وضعا عربيا لا يريح...

إن اعتماد أحمد مطر على اللغز في أشعاره ليس رسالة تعتيمية مجانية، بل هو رغبة في تحريك روح المغامرة لدى القارئ للحفر في طبقات النص حتى يصل إلى النشوة الجمالية بعد أن يتكيف مع جوه ويحس بالاطمئنان، ليندفع نحو التأويل فيكشف المسكوت عنه ويصرح بما لمح له ويقول ما لم يقله الشاعر أحمد مطر.

خامسا : الفعل الشعري في قصائد أحمد مطر ينمو بشكل تصاعدي منطلقا من تساؤلات صبغت في قوالب لغوية محايدة ذات الدرجة الصفر من التعبير المجازي، لتصل إلى بنى لغوية مشحونة بطاقات دلالية كثيفة ساخرة متهكمة مستترة وراء قناع اللغة إيقاعا وقاموسا وتركيبا .... هدف أحمد مطر من ذلك التعبير عن رؤاه وأحاسيسه بالطريقة التي يراها أكثر تأثيرا من غيرها، ولو أدى ذلك إلى الإخلال بنظام الجملة التي يعيد ترتيبها وفق غايات دلالية وفنية وجمالية تثير دهشة الملتقى وتسبب له هزة غير متوقعة.

سادسا: شعر أحمد مطر حالة من التمرد ،تظل تمارس فعل التأبي وخطاب الرفض الذي يكبر بشكل يجعل كل ممارساته الشعرية تقدم نفسها على شكل شذرات تجمع بين المخاطرة واللعب، وبين الصدفة والضرورة، في لغة جديدة تحسن تضييع القارئ في صراع تحكمه اللامبالاة... لغة ترشح بالإيحاءات والظلال القادرة على النفاد في وجدان القارئ والتأثير فيه بواسطة السخرية المريرة والتهكم اللاذع بأسلوب جمالي لا ينكره متذوق.

سابعا: السخرية في شعر أحمد مطر براعة ولعبة ذكية موظفة بوعي،تحتاج لفكر وذكاء لفك ألغازها، فالشاعر لا يترك المتلقي إلا وقد أحس بالدهشة اتجاه صوره التي تفيض بالتهكم اللاذع.

ثامنا: لغة الشاعر أحمد مطر في قصائده الساخرة لغة مفهومة لا تحتاج معجما ولا تشكل غموضا رغم ما فيها من انزياحات، تغير قابلية الفهم في حركة زئبقية من قارئ لآخر، فالتشظي الدلالي واللساني الذي يسود قصائده الشعرية وسيلة للإيقاع بالقارئ وليس لتنفيره من ممارسة فعل القراءة.

هوامش البحث ومصادره:

(١) أحمد مطر، شاعر عراقي ولد سنة ١٩٥٦ بالبصرة، بدأ يكتب الشعر في سن الرابعة عشر، لم تخرج قصائده الأولى عن دائرة الغزل ...رحل إلى الكويت وعمل فيها أستاذا بمدرسة خاصة للصفوف الابتدائية، ثم محررا ثقافيا في جريدة القبس، وهناك التقى بالفنان الرسام الكاريكاتوري ناجي العلي الذي اعتبره توءمه الروحي...فكانت لافتات أحمد مطر تفتح الصفحة الأولى في جريدة القبس ليختمها ناجي العلي بلوحته الكاريكاتورية... لكن لهجتهما الحادة . .ورفضهما عدم التنازل عن مبادئهما ومواقفهما أثار حفيظة مختلف السلطات العربية، مما أدى إلى نفيهما من الكويت التي كانت تمر بحرب طاحنة ... فرحلا إلى لندن، وهناك فقد أحمد مطر نصفه الثاني الفنان ناجي العلي الذي اغتيل سنة ١٩٨٧ وبقي هو يعمل في مكاتب جريدة القبس الدولية، لكن سرعان ما ساءت علاقته مع هذه الجريدة .

لأحمد مطر ديوان شعري طبعه على نفقته الخاصة، أحاديث الأبواب .شعر الرقباء.ولاة الأرض . ورثة إبليس .أعوام الخصام .الجثة .دمعة على جثمان الحرية .السلطان الرجيم .الثور والحظيرة (انور السادات).هون عليك (ياسر عرفات) .مقاوم بالثرثرة (بشار الأسد) .كلب الوالي .ما قبل البداية ..ملحوظة .مشاتمة .كابوس .انتفاضة مدفع .لافتات١ – ١٩٨٤ م.لافتات٢ – ١٩٨٧ م .لافتات٣ – ١٩٨٩ م .لافتات٤ – ١٩٩٣ م .ديوان الساعة ١٩٨٩ م .لافتات٥ – ١٩٩٤ م .لافتات٦ – ١٩٩٧ م .لافتات٧ – ١٩٩٩.

(٢) حلب البقال ضرع البقرة /ملأ السطل .... وأعطاها الثمن/ قبلت ما في يديها شاكرة/لم تكن قد أكلت من زمن قصدت دكانه مدت يديها بالذي كان لديها/ واشترت كوب لبن. شبكة فلسطين للحوار www.paldf.net

(٣) لم يستوعب بعد الشعراء والنقاد على امتداد القرن العشرين " الشعر المنثور" و"النثر الشعري " اللذين دعا إليهما أدباء المهجر حتى أطل عليهم "خليل مطران" وباقي شعراء الرومانسية "بالشعر المرسل"، وقبل أن يثبت وجوده تعالت أصوات عراقية تنادي "بالشعر الحر" ... ولم تخف المعركة حوله حتى أطلت مجلة "شعر"بما سمي بقصيدة "بقصيدة النثر" التي حمل لواءها: يوسف الخال، أدونيس، جبرا إبراهيم جبرا، نزار القباني، سليم بركات، أحمد مطر ...التي أسالت بدورها الكثير من المداد في ظل غزارة الإبداع لدى الشعراء وشح التنظير لدى النقاد ... فلم يستطع النقاد أن يضبطوا حدودها، وإن اتفقوا على أن ما يكتب هو "قصيدة النثر"... ووسط هذا الجدال تطفو قصيدة الومضة التي خرجت من رحم قصيدة النثر والدليل على ذلك أن روادها هم رواد قصيدة "النثر"...

(٤) رأيت جرذا
يخطب اليوم عن النظافة
وينذر الأوساخ بالعقاب
وحوله
يصفق الذباب
انظر لافتات ١ ص، ٢٣.

(٥) أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،دار الإسراء، فلسطين ،ط١/ ٢٠١٣ ص :219

(٦) أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،دار الإسراء، فلسطين ،ط١/ ٢٠١٣ ص : ٢١٩ .

(٧) أحمد مطر، ديوان إني المشنوق أعلاه، قصيدة المنشق.

(٨) أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،دار الإسراء،فلسطين ،ط١/ ٢٠١٣ ص :219

(٩) أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،ص:220.

(١٠) أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،ص:220.

(١١) بدعة عند ولاة الأمر صارت قاعدة/كلّهم ينهض لشتم أمريكا/وأمريكا إذا ما نهضوا للشتم/تبقى قاعدة فإذا ما قعدوا/تنهض أمريكا لتبقى قاعدة. (أحمد مطر، قصيدة "قواعد"، لافتات٢، ص.٧٧

(١٢) الغربُ يبكي خيفةً/إذا صَنعتُ لُعبةً/ مِن عُلبةِ الثُقاب/ وَهْوَ الّذي يصنعُ لي/ مِن جَسَدي مِشنَقَةً/حِبالُها أعصابي والغَربُ يرتاعُ إذا/أذعتُ، يوماً، أنّهُ/ مَزّقَ لي جلبابي/وهوَ الّذي يهيبُ بي/ أنْ أستَحي مِنْ أدبي/ وأنْ أُذيعَ فرحتي/ ومُنتهى إعجابي / إنْ مارسَ اغتصابي والغربُ يرتاع إذا /عَبدتُ ربّاً واحِداً/في هدأةِ المِحراب/وَهْوَ الذي يعجِنُ لي/مِنْ شَعَراتِ ذيلِهِ/ومِنْ تُرابِ نَعلِهِ/ ألفاً مِنَ الأربابِ/ينصُبُهمْ فوقَ ذُرا/مَزابِلِ الألقاب/ لِكي أكونَ عَبدَهُمْ/ وَكَيْ أؤدّي عِندَهُمْ/ شعائرَ الذُباب/ وَهْوَ.. وَهُمْ / سيَضربونني إذا/أعلنتُ عن إضرابي/ وإنْ ذَكَرتُ عِندَهُمْ/ رائحةَ الأزهارِ والأعشابِ/سيصلبونني على /لائحةِ الإرهابِ/ رائعةٌ كُلُّ فعالِ الغربِ والأذنابِ/أمّا أنا، فإنّني /مادامَ للحُريّةِ انتسابي/ فكُلُّ ما أفعلُهُ/نوعٌ مِنَ الإرهاب هُمْ خَرّبوا لي عالَمي /فليحصدوا ما زَرَعوا/ إنْ أثمَرَتْ فوقَ فَمي/وفي كُريّاتِ دمي/عَولَمةُ الخَرابِ/ ها أنَذا أقولُها / أكتُبُها .. أرسُمُها../ أطبعُها على جبينِ الغربِ/بالقُبقاب/نَعَمْ.. أنا إرهابي زلزَلةُ الأرضِ لها أسبابُها/إنْ تُدرِكوها تُدرِكوا أسبابي/ لنْ أحمِلَ الأقلامَ/بلْ مخالبي/ لَنْ أشحَذَ الأفكارَ/ بلْ أنيابي / ولَنْ أعودَ طيّباً /حتّى أرى/شريعةَ الغابِ بِكُلِّ أهلِها /عائدةً للغاب / نَعَمْ .. أنا إرهابي/أنصَحُ كُلَّ مُخبِرٍ/ ينبحُ، بعدَ اليومِ، في أعقابي / أن يرتدي دبّابةً/لأنّني.. سوفَ أدقُّ رأسَهُ إنْ دَقَّ، يوماً، بابي (أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،ص:٢٢٠)

(١٣) قال الصبيّ للحمار: يا غبي قال الحمار للصبي: يا عربي" (أحمد مطر، قصيدة "مشاتمة"، لافتات٢، ص ٧١)

(١٤) أحمد مطر ،الأعمال الكاملة ،ص:221.

(١٥) سورة الزلزلة، الآية، ١-٢-٣-٤.

(١٦) أحمد مطر، لافتات ١/١٩٨٤، ص:١١، ط.١/الكويت

(١٧) سورة المسد، آية : ١-٢.

(١٨) سورة الكهف، آية ١٥ .

(١٩) أحمد مطر، لافتات ٤/ ١٩٩٢، ص: ١٥٨- ١٦٠. (للمزيد ارجع لقصيدة "الدولة" التي تبدو فيها ظلال سورة "الكوثر "أكثر وضوحا.)

(٢٠) أحمد مطر، لافتات ٢، ص: ٧٤.

(٢١) البخاري، محمد بن إسماعيل، (١٩٩٣)، الصحيح (فتح الباري)، كتاب النكاح، باب قو أنفسكم وأهليكم نارا، حديث رقم 5188، ج١٠، ص٣١٧، تحقيق وتعليق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٢٢) قلت للريح : استحمي في دمائي/قالت الريح:/بهذا العاصف العاتي/سينشق ردائي/قلت للشمس : استحمي
هتفت:/أخشى بهذا الوهج الساطع/أن يعمي ضيائي/قلت للبحر: تحمم/قال لي:/أخشى من الطوفان
أن يغرق مائي/ها أنا ناديت أقراني/وما من أحد لبى ندائي/يا دمائي ... وحدك الآن، عزائي
يا دمائي حاولي أن تستحمي في دمائي/هتفت:/لا وقت عندي لاحتوائي/إنني ألتف في شرنقة الإعصار
من غير انتهاء/إنني غارقة في كبريائي! (أحمد مطر، قصيدة عوائق، لافتات ٧، لندن، ط.٠١، ١٩٩٩، ص.٧٢-٧٣.)

(٢٣) صباح هذا اليوم / ايقضني منبه الساعة / وقال لي: يا ابن العرب / قد حان وقت النوم ! (أحمد مطر، قصيدة المنبه، لافتات٢، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الالتزام للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٧ص٢٢.)

(٢٤) نافق / ونافق / ثم نافق، ثم نافق / لا يسلم الجسد النحيل من الأذى / إن لم تنافق / نافق / فماذا في النفاق / إذا كذبت، وأنت صادق / نافق / فإن الجهل أن تهوى / ليرقى فوق جثتك المنافق/ لك مبدأ؟ لا تبتئس / كن ثابتا / لكن ... بمختلف المنافق / واسبق سواك بكل سابقة / فإن الحكم محجوز / لأرباب السوابق . (أحمد مطر، قصيدة لن أنافق، لافتات ٢/ص. ٣٨-٣٩.)

(٢٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١ ص. ٢٤٠، تعليق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل/بيروت/لبنان . ب- ت .

(٢٦) هذه التسميات أحصيناها من كتابات مجموعة من النقاد المعاصرين من أمثال : إحسان عباس، عز الدين المناصرة ،خليل موسى، علي عشيري زايد.

(٢٧) حين أتى الحمار من مباحث السلطان / كان يسير مائلا .... كخط ماجلان / فالرأس في إنجلترا/ والبطن في تنزانيا / والذيل في اليابان ! / خيرا "أبا أتان" ؟/ اتقتدونني / نعم ..... مالك كالسكران ؟ /لا شيء بالمرة .... يبدو أنني نعثان / هل كان للنعاس أن يهدم الأسنان / أو يعقد اللسان / قل : عذبوك.. ؟ / مطلقا، كل الذي يقال عن قثوتهم / بهتان / بشرك الرحمن / لكننا في قلق / قد دخل الحصان منذ أشهر / ولم يزل هناك حتى الآن / ماذا سيجري أو جرى / له هناك يا ترى؟ / لم يجر شيء أبدا كونوا على اطمئنان / فأولا: يثقبل الداخل بالأحضان / وثانيا: يثأل عن تهمته بمنتهى الحنان / وثالثا: أنا هو الحثان (نقلا من كتاب أحمد مطر، شاعر المنفى، واللحظة الحارقة، هاني خير ص.١٤٦-١٤٧-١٤٨.)

(٢٨)يقول فيها: رأيت جرذا / يخطب اليوم عن النظافة / وينذر الأوساخ بالعقاب / وحوله / يصفق الذباب !
(أحمد مطر، قصيدة "خطاب تاريخي"، لافتات،١، ص٢٣)

(٢٩) قالت أمي مرة : يا أولادي عندي لغز، من منكم يكشف سره / " تابوت قشرته حلوى / ساكنة خشب... / والقشرة / زاد للرائح والغادي" قالت أختي: "التمرة " / حضنتها أمي ضاحكة / لكني خنقتني العبرة / قلت لها : "بل تلك بلادي ".

المصادر والمراجع

- أحمد الشايب ، الأسلوبية، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية/مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٨.
- أحمد مطر، الأعمال الكاملة، درا الإسراء/فلسطين، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.
  ديوان الساعة، دار النشر/لندن ، الطبعة الأولى ١٩٨٩، .
  لافتات ٧/لندن الطبعة الأولى، ١٩٩٩.
- جورج مولينييه، الأسلوبية، ترجمة بسام بركة/المؤسسة الجامعية/ لبنان ٢٠٠٦.
- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب/الطبعة الثانية، ١٩٩٥.
- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية :قراءة أخرى، الشركة المصرية ١٩٧٧.
- محفوظ كحول، روائع قصائد أحمد مطر، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٧.
- موسى سامح ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي/ الأردن، الطبعة الأولى٢٠١٣ .
- سامي محمد عبابنة، التفكير والأسلوب رواية معاصرة في التراث النقدي والبلاغي في ضوء علم الأسلوب الحديث ،الطبعة الثانية ٢٠١٠.
- كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع في شعر أحمد مطر، مكتبة مدبولي/القاهرة/مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.
- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية ،الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع/عمان، الطبعة الثانية، ٢٠١٠.
- هاني الخير، أحمد مطر شاعر المنفى واللحظة الحارقة، دار فليتش/ الجزائر الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.